الصحراء والتكيف النفسي للإنسان

د/عبد المجيد قدور
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

إن موضوع حياة الصحراء والتكيف النفسي للإنسان معها، يعد على غاية من الأهمية، لكونه يجمع بين العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية المكملة لها، فهو يدرس الإنسان والطبيعة ،ويحاول الكشف عن العلاقات التي تربط بينهما, وهي علاقة أزلية، بدأت يوم نزل آدم عليه السلام إلى الأرض، ثم أخذ يتعامل مع الطبيعة، يستنشق هواءها، ويشرب ماءها، ويأكل من خيراتها الحيوانية والنباتية، وبعد تكاثر ذرية آدم وانتشارهم عبر أرض الله الواسعة، سعيا للقيام بدورهم الأساسي الذي خُلق الإنسان من أجله ،وهو تعمير الأرض وإصلاح الكون. والمحافظة عليه، والعمل على تنمية الجوانب الخيرية فيه، وتهذيب الجوانب السلبية وذلك حتى آخر لحظة من الحياة.

وقد اكتشف الإنسان أن الطبيعة تختلف من منطقة إلى أخرى، مناخا ونباتا ومخلوقات برية وبحرية. فأخذ يتأقلم مع البيئة التي يستقر فيها كيفما كانت ،صحراء جرداء ،أم سهول ساحلية، أو جبالا وهضابا ملتوية ،إلى أن وصلت معرفته-أي الإنسان-إلى ما يعرف اليوم بالأقاليم الجغرافية، والتضاريس الجغرافية، ومن بينها الصحاري الشاسعة، وقد عرفنا منها صحاري بنصف الكرة الأرضية الشمالي، ومن بينها، الصحراء الكبرى بجنوبنا الجزائري الكبير، وهي موضوع دراستنا هذه...

لاحظت مؤخرا أهمية الصحراء بالنسبة للشعوب التي تقطن الفيافي والقفار ، بين الوديان والكثبان في بلاد شبه جزيرة العرب، وفي صحراء سيناء ،والصحراء

الكبرى بشمال إفريقيا, وجدت أن هذا النوع من التضاريس هو مصدر الخيرات والبركات، ولاسيما بعد اكتشاف البترول والمعادن في الصحراء، أصبح الشرق المنتج والغرب المستهلك يرتزق من ما في باطن الصحراء. فكم من حرب قامت مؤخرا من أجل البترول ،وكم من حصار اقتصادي فرض على دول ضعيفة من أجل البترول. لكن رغم ذلك كله ،وجدت أن المناطق الصحراوية لم تنل نصيبها من الاهتمام والعناية ،ومكانتها لدى الدارسين والباحثين ،سواء من جانب المنتجين أو المستهلكين على السواء، هامشية ومُغيبة .وهذا ماد فعني لكتابة هذه الصفحات المتواضعة حول تاريخ صحرائنا الكبرى، وحياة الإنسان ومعاناته فيها. وقد قسمتها- أي الصفحات- إلى ثلاثة مباحث كما سترى.

أولا: تعريف المصطلحات(الإنسان، المناخ " التكيف مع البيئة الصحراء)

تعريف الإنسان:

جاءت عدة تعاريف للإنسان منها التعريف: التشريحي والتعريف الوظيفي.

1- التعريف التشريحي: ينظر إلى أن استقامة قامة الإنسان واعتبرها هي الميزة الأولى له، كما أن حجم المخ الإنساني هو الحد الفاصل بين الإنسانية من جهة، وبين الحيوانية من جهة أخرى[1]، وهناك من جعل تطور الأجهزة الصوتية ومعرفة الكلام وظهور اللغة، عوامل تدخل في تعريف الإنسان.

2- التعريف الوظيفي: يقولون أن أهم ما يميز الإنسان ،هو قدرته على إحداث التغيير في البيئة، ولكن هذه الميزة يشاركه فيها غيره من المخلوقات، فقيل:"حتى النمل قادر أن يحدث تغييرات في البيئة وكذلك الأرانب والسنجاب وغيرها من الحيوانات" والمقصود هنا هو أن الإنسان له قدرته على أن يصنع شيئا من الطبيعة نفسها ،ولذلك سمي بالإنسان الصانع. فمن الماء والطين يمكنه أن يصنع مواد للبناء .وعلى كل حال فالتعريف الوظيفي يسير جنبا إلى جنب مع التعريف التشريحي،

[1] Cole s the prehistory of East Africa .N.y. 1963. p106.

لأن انتصاب القامة حرر الطرفين الأماميين للإنسان أي اليدين، كما كان نمو المنطقة الخاصة باللغة في المخ جعلت الإنسان يتفاهم مع من حوله من أبناء المجتمع الذي يعيش فيه ،وحتى مع بعض المخلوقات الأخرى، لاسيما الحيوانات الأليفة منها: فهو يفهم أصواتها ويميز بين المفرح منها والحزين، ولذلك أصبح الإنسان أرقي المخلوقات[1].

ومن هنا يمكننا القول: أن الإنسان هو أرقى المخلوقات على الإطلاق وذلك بما اختصه الله تعالى من صفات، ومميزات خلقية وأخلاقية، كالعقل المفكر، وكحسن الخلق قال تعالى :"وصوركم فأحسن صوركم المصير"[2]، فإذا أخذنا الحواجز الجغرافية على سبيل المثال :فنجد الصحراء الكبرى في إفريقيا فصلت بين سكان البحر الأبيض المتوسط في شمال القارة، وبين المجموعة الزنجية في إفريقيا المدارية. فالعوامل الجغرافيا كانت دائما تقف عائقا أمام تحركات الإنسان ونشاطه، ولكن نظرا لقدرته العظيمة على التكيف والتلاؤم مع الظروف البيئية كيفما كانت،وكذلك قدرته على تناول طعام أية بيئة ،وسيطرته على استخدام النار والآلات التي اخترعها مع مرور الزمن، بدافع الحاجة الملحة، مما مكنه من العيش في ظروف مختلفة وبيئات متنوعة [3].

أولا: المناخ: ففي المناطق الصحراوية حيث يسود الجو الجاف وتكون البيئة أفضل قليلا من البيئة ذات المناخ الرطب، وفي بعض الحالات الأخرى يرجع لون البشرة الفاتح لسكان الصحراء إلى أنهم لم يمض عليهم الوقت الكافي لاكتساب لون البشرة الداكنة، كالطوارق الذين وصلوا إلى الصحراء منذ 1500 سنة.

ثانيا: الغذاء: أما فيما يتعلق بالغذاء فإن سكان الصحراء أو البدو الرحل ،فهو يتركز في كميات بسيطة من الأطعمة، مليئة بالبروتينات والمواد الدهنية والمواد

---

[1] يسرى عبد الرازق الجوهري .الإنسان وسلالاته..الإسكندرية ،منشأة المعارف ،1982.ص1415

[2] سورة التغابن ،الآية 3.

[3] يسرى عبد الرازق الجوهري .الإنسان وسلالاته..الإسكندرية، منشأة المعارف، 1982.ص3031

السكرية كالتمر والتين ،كما يشتمل غذاؤه على اللبن والتمر وبعض الحبوب، وهم لا يحصلون على السيلوز الموجود في الخضروات لانعدام الحياة النباتية في الصحراء .

ثالثا: الإنسان التكيف مع البيئة والتطور: تأثير البيئة أمر على جانب كبير من الأهمية. إذ أن لكل منطقة من المناطق الجغرافية تأثير قوي ومباشر على الجماعات البشرية التي تعيش بها ،وذلك عن طريق عامل العزلة الذي ينشا من جراء حواجز التضاريس المختلفة ،كسلاسل الجبال والصحاري والمحيطات وغير ذلك، مما يعيق تنقل البشر، وقد يكون أيضا بطريق غير مباشر، كتأثير المناخ والمواد الغذائية لتلك المنطقة ولكل ذلك أثر على تطور الانسان.

2- الملائمة والتكيف مع البيئة:

والمقصود هنا الصراع القائم بين بني الإنسان والطبيعة، لأن كل طرف منهما يريد السيطرة على الآخر. فالطبيعة بحكم قوتها وجبروتها تريد دائما إخضاع هذا الكائن الضعيف نظرا لقوته المحدودة وحجمه الضيق، بالنسبة للمسافات الشاسعة للأقاليم الجغرافية وامتدادها الأفقي والعمودي، وقد تحدث العلامة عبد الرحمان ابن خلدون في المقدمة عن الاختلاف بين البشر والموطن. وأثر البيئة في المجتمع في أن الاجتماع الإنساني ضروري ،وقد عبر الحكماء عن هذا بقولهم :"الإنسان مدني بالطبع "أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية اصطلاحا، وهو العمران، وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة بحيث تعتمد حياته وبقاؤه على الغذاء مهما اختلفت أنواعه وأشكاله وتركيباته ،وهداه الخالق- عز وجل- إلى التماسه بفطرته والحصول عليه ،وبما منحه الله سبحانه وتعالى من القدرة العجيبة على تحصيله عقليا بدنيا [1] .

غير أن قدرة الفرد الواحد من البشر-مهما بلغت -تظل قاصرة عن تحصيل حاجته الكاملة من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا من الغذاء

[1] عبد الرحمن بن خلدون ،المقدمة ،ب ت:82 91

أقل ما يمكن فرضه ،وهو قوت يوم واحد من الحنطة مثلا، فلا يمكن الحصول عليه إلا بعد سلسلة طويلة من العمليات المضنية لعلاج حبوب الحنطة وتحويلها إلى غذاء جاهز. فعليه زرع الحبوب وحصدها، ثم الطحن والعجن والطبخ ،وكل واحد من هذه الأعمال المتتالية ،يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري "صانع الفخار" وهذا كان قبل ظهور المواعين الزجاجية والمعدنية خلال العصور الأخيرة .

وفيما يخص الإنسان وإنسان الصحراء بذاته، يريد أن يتحدى الطبيعة ،وأن يتغلب على كل ما يعيق طريق تحقيق رسالته التي خلق من أجلها وهي عمارة الكون وإصلاح ما أفسدته الطبيعة الغاضبة أحيانا، كالرياح المدمرة، والزلازل. ثم يضيف قائلا:" تصور أنه يأكل غذاءه حبا من غير علاج، ولا طحن ،فهو أيضا يحتاج في تحصيله حبا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه كالزراعة والحصاد والدرس الذي يخرج الحب من غلاف السنابل[1] ويحتاج كل واحد من هذه العمليات -التي تدوم فصلا كاملا من فصول السنة - إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير. ويستحيل أن تقوم بذلك كله أو حتى بعضه قدرة الإنسان الواحد.فلا بد من اجتماع "قدرات"انسانية كثيرة من أبناء جنسه ليحصل على القوت له ولهم بالتعاون.وبالتعاون أيضا يحصل أضعاف ما يحتاجون، أي ما يعرف بالاكتفاء الذاتي .

وكذلك يحتاج كل فرد منهم في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه. لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها. وقسم القدرات بينها، جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان الضعيف؛ فقدرة الفرس مثلا وهو حيوان أليف ،أعظم بكثير من قدرة الانسان، وكذا قدرة الحمار والثور؛ ما بالك بقدرة الأسد ذو المخالب الفتاكة، والفيل ذو الخرطوم " العجيب.

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون .المقدمة .ب ت:82 91 ص70

ولما كان من طبيعة الحيوان العدوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بالدفاع عن نفسه ضد أعدائه. ومقابل ضعف قدرة الإنسان جعل الله له عوضا عن ذلك كله الفكر واليد. فاليد مهيأة للصنائع ولخدمة الفكر وما يأمر به ؛وبالصنائع تحصل له الآلات التي تحل محل الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع :مثل الرماح التي يصنعها الإنسان تنوب عن القرون الناطحة لدى بعض الحيوانات ؛والسيوف النائية تنوب عن المخالب الجارحة ،وقد ذكر جالينوس[1] أن الواحد من البشر لا تقاوم قُدرتُه قدرة واحد من الحيوانات العجم ،لاسيما المفترسة منها؛ فهو عاجز عن مدافعتها بمفرده بالجملة ؛ ولا تفي قدرته –أيضا– باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرتها ،وكثرة الصنائع العاديات من المخلوقات الضخمة من جهة ،ومن عوامل الطبيعة المفاجئة من جهة أخرى[2].

ويقول مونتسيسكو " أن الإنسان كائنا فردا ،ووحدة طبيعية، تقابله قوتان هما: الأرض "التربة"، والمناخ وتناول مونتسيسكو السهول الخصبة التي هي موطن المزارعين المستقرين الذين لا يطيقون انفصالا عنها ،ولا يرضون بديلا عوضا لها .ومثل هذه السهول تغري الأقوى بفرض سلطته على المستضعف الذي همه الأرض وإنتاجها المنتظم ومنها الدول القوية التي تهيمن على الدول الضعيفة ،أي ما يعرف اليوم بالاستعمار.

ويبدو مما سبق ذكره إن التفاعل بين الإنسان والطبيعة في كل مكان وزمان موجود. وكل منهما يريد إخضاع الآخر لإرادته. والإنسان البدائي رغم قدراته العقلية والإبداعية، لم يتمكن من إخضاع الطبيعة لإرادته ولتلبية كل حاجاته الحياتية. لكن الإنسان المتحضر في العصر الحديث ،ولاسيما المعاصر توفرت له الإمكانيات بفضل العلوم التكنولوجيا وما يستجد منها كل يوم، مما جعله سيد الكون برا وبحرا وجوا.

---

[1] جالينوس. في كتاب المنافع الأعضاء ص71

[2] عبد الرحمن بن خلدون المقدمة.ص71

ويستمر الصراع بين الإنسان والطبيعة مادامت الأرض والسموات؛ لأن كل منهما خلق لخدمة الآخر. فبني البشر خلقوا لتعمير الكون وإصلاح ما فسد، أو خربته عوامل التعرية والعوامل الطبيعية كالزلازل والأمطار الغزيرة ، والرياح العاتية .والإنسان يزرع ويحصد ويقلم الأشجار ويصلح الطرقات كل ذلك وغيره من أبناء عقله وأفكاره. أما الطبيعة فقد سخرها الله تعالى للبشر ليسعوا فيها ويقوموا بالإنشاء والتعمير، ثم يحققوا الهدف الاسمي من الخلق، وهو العبادة الخالصة للخالق جل وعلى ،الذي قال في كتابه العزيز: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدوني[1]. "وقال: ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات والأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه... [2].

المبحث الثالث: الصحراء الكبرى " أثر المناخ وأثر التضاريس

وتمتد الصحراء جنوبي الأطلس، الصحراوي وهي عبارة عن أحواض مغلقة ، وهي منطقة قليلة العشب شحيحة بمياهها ،لذلك لا نجد بها أثرا للسكن، إلا في مناطق محدودة هي مناطق الواحات. وتمثل الصحراء الجزائرية أكثر من 80 في المائة من المساحة الإجمالية التي يقطنها حوالي نسمة واحدة في كلم مربع، يتركز معظمهم في تلك الواحات ذات المياه الباطنية، يزرعون الخضر والفواكه ،ويعتمد البعض منهم على زراعة نخيل التمر، التي تنتشر على طول وادي الساورة في الغرب الجزائري ،وفي وادي ميزاب وتوقرت والمنيعة وعين صالح ،ووادي سوف نحو الشرق .

ومن هنا تعد الوديان من أسباب الحياة للإنسان والحيوان، وكل من يمشي على رجلين، ومن يمشي على أربع والزاحف والطيور الأرضية منها كالنعامة والطائرة في الجو كالنسر وغيره من الكواسر .وتتجلى قدرة الخالق أن الصحراء طبعت سكانها بالصبر والاحتمال، وبساطة الحياة بما عكس ما في المدن .فهم أناس كرماء شجعان.

---

[1] سورة الذاريات، الآية 56

[2] سورة لقمان ،الآية 20 .

تأثير المناخ في الإنسان وأنشطته من قديم الزمان اعتبر وجود الإنسان وأنشطة حياته المختلفة ،محكومة بالمناخ ،ولذلك حددت مناطق وجوده .والمناطق الأكثر ملائمة له، وتلك المتطرفة مناخيا التي لا تمنحه أساسيات الوجود. وكما ورد في كتب التراث بالنسبة لصلاحية كل إقليم من الأقاليم الأرضية السبعة المحددة قديما ،فإن خط الاستواء "يمثل خط الصفر"[1]وهو الإقليم الأول معتدل للمعادن دون النبات والحيوان والإنسان لإفراط الحر واليابس والتهاب الجو بالنار الشمسية، والإقليم الثاني معتدل للإنسان والمعدن دون الحيوان والنبات إلا ما كان جليلا في خلقه منها ، والإقليم الثالث معتدل للإنسان والحيوان والنبات دون المعدن إلا لبعض منه[2].

بشير المسعودي تأثير المناخ في أخلاق البشر في كتابه" التنبيه والإشراف " مناطق شمال خط عرض66 تنعدم فيها الحياة من البرد ، ويحدد المناطق التي تنعدم فيها الحياة من الحر جنوب من خط 19 درجة جنوبا[3].

وإذا كانت الحياة تقل قلة ظاهرة حتى يومنا هذا، شمال الدائرة القطبية الشمالية، إلا أنها تتواجد حاليا وبشكل ملحوظ جنوب خط عرض 19 درجة جنوبا في الصحراء الأسترالية وصحراء كلهاري ،حيث يوجد جنوب المنطقة الصحراوية وشرقها آثار عمرانية وحياة ،ولكن الحياة معدومة في الصحاري الشمالية "كالصحراء الكبرى "مما جعلها مجهولة حتى مرحلة لاحقة قريبة جدا [4] ويسير المرء خمسمائة كلم وأكثر لا يجد إلا السراب والفراغ .

ويعود هذا بالدرجة الأولى إلى المناخ شديد الحرارة والجاف طيلة معظم شهور السنة، ويتطلب المناخ الحار توفر المياه للحياة الكريمة لكل حي إنسان حيوان أو نبات. ليس هناك من هو أكثر شهرة من العلامة ابن خلدون في هذا المجال، فهو

---

[1] خط الاستواء هو خط وهمي يقسم الكرة الأرضية إلى نصفين متساويين هما النصف الشمالي والنصف الجنوبي

[2] علي حسن موسى . المناخ في التراث العربي..دمشق، دا ر الفكر. 2001 .ص325

[3] المسعودي.التنبيه والإشراف زص25

[4] علي حسن موسى .نفس المصدر .ص26؛ المناخ في التراث العربي. ص 327

يربط بين المناخ، وبين أخلاق الناس وسلوكهم ،وقد ورد في قوله:" من خُلُق السودان[1] على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص...، موصوفين بالحمق في كل قطر، والسبب الصحيح في ذلك ؛أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه ،وطبيعة الحزن بالعكس وهي انقباضه وتكاثفه. حتى يقول عن المستحمين :" إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح ،وانبعث الكثير منهم بالغناء تعبيرا عن السرور. ولذا تجد المستحمين مبسوطين بشوشين [2] بينما بين ابن سيناء ما تحدثه الحرارة والبرودة من تأثيرات على الإنسان بقوله :"الهواء الحار يحلل ويرخي، فان اعتدل حمر اللون، وجذب الدم إلى خارج، وان أفرط صفر اللون ،والهواء البارد عكسه يشد ويقوي على الهضم.[3].

أهمية الصحراء الكبرى:

تعود أهمية الصحراء الكبرى في كونها تربط الواحات المتعددة التي تزين الصحراء بمياهها العذبة وبساتينها الغناء بعضها ببعض ،مما يجعلها صالحة للحياة من جهة، ومن جهة أخرى تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان ،لاحتياج كل منهما للآخر، وبذلك تكونت مد اشر وقرى المجتمع الصحروى الذي تجمعه وحدة البيئة والمناخ وطريقة المعيشة والعادات والتقاليد التي تحولت مع الزمن إلى تراث للمجتمع الصحراوي.

والصحراء الكبرى التي تمتد شرقا حتى ضفاف النيل وغربا حتى شواطئ الأطلسي هي التي جمعت، وربطت بين المجتمع الإسلامي شرقا وغربا عبر عدد من الواحات، فمن واحة ورقلة إلى واحة برقة وطرابلس ومنها إلى واحات مصر، الأمر الذي أحدث

---

[1] السودان هنا كل ما يقع جنوب الصحراء الكبرى هناك . السودان الغربي، والشرقي، وبينهما السودان الأوسط .

[2] ابن خلدون مقدمةص6162

[3] ابن سيناء القانون في الطب.ج1،116117." إعلي حسن موسى .المناخ .مرجع سابق. ص ص339

حضارة متميزة ومراكز تجارية ونتج عن هذا الترابط وجود العمران منذ دخول الإسلام: كما قامت واحة توات بدور ايجابي بربط البلاد السودانية –مالي–بالجزء الشمالي من الجزائر إلى وقت قريب. فقد كانت قوافل تنطلق من البيض وعين الصفرا نحو قورارة وتوات،حاملة السلع لتقايضها بأخرى متوفرة بالمنطقة، أو مستوردة من إفريقيا وراء الصحراء .

ويرى البعض أن الصحراء قديمة جدا ،وربما انتقلت الحضارة الإنسانية منها إلى الشمال، لأن الإنسان الأول يرجح أنه كان يفضل العيش في المناطق السهلية المنبسطة، والهضاب المنخفضة والكثبان الرملية المتنقلة التي تسمح له بالتنقل والاختفاء بين بساتينها ووديانها كلما أحس بخطر ما .ونتناول أهمية الصحراء على مرحلتين :

أولا: مرحلة قبل القرن التاسع عشر:

كانت المعلومات الجغرافية حول اليونان والرومان والجغرافيون والتجار العرب ويعتبر الحسن بن أحمد الوزان المدعو ليون الإفريقي لافريكان "الفئة الأخيرة من الكتاب وهي المعلومات الوحيدة المتوفرة للباحثين عن الصحراء الكبرى في أواخر القرن18م ،ورغم من توغل بعض المغامرين الأوروبيين في الصحراء فإن رحلاتهم لم يكن لها تأثير كبير في البحث العلمي ،ولم تضيف شيئا في معلومات الناس عن الصحراء الكبرى .وظلت طبيعة هذه الأخيرة سرا مجهولا يتحدى علماء الجغرافيا لغاية منتصف القرن الثامن عشر ميلادي[1] وذلك يعود لعدة أسباب منها: كان السفر من أجل اكتشاف الفيافي الممتدة بين الأطلسي ونهر النيل، وبين التشاد والبحر الأبيض المتوسط –والتي تشغل أكثر من ثلث مساحة إفريقيا – أمرا ليس بالهين ولا باليسير ،فهو عبارة عن هضاب قاحلة وسهول تسطع فيها شمس محرقة في معظم فصول السنة، ويزيد خوف الأجانب من أهوالها، تلك الأساطير التي تُروى عن متاهات الصحراء، وعن سرابها الخداع، والصحراء الكبرى إذا كانت خالية من السباع الضارية،

[1] إسماعيل العربي .تاريخ الرحلة والاستكشاف . ص 287

ومن سهام الهنود الحمر المسمومة ،فهي مع ذلك تحميها حراب عمالقة من السود تزعم الخرافات أنهم من أكلة البشر ،ويرجح أن يكون هذا ترويج من قبل دعاة التمييز العنصري.

ولكن الحقيقة هي أن الطبيعة القاسية هي التي تشكل سياجا منيعا ضد توغل الأجانب في الصحراء، ومعروف أن الصحراء كانت تمثل عبر التاريخ الخط الخلفي في الدفاع عن الإسلام والقيم الأدبية ضد طلائع الإسلام. وأما خطوط الدفاع الأمامية، فقد كانت هي الشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض وظلت الأساطيل المغربية قرونا طويلة تذود بقوة وبسالة عن الحرية في هذه الأوطان ،لسد المنافذ إلى الصحراء وبعد سقوط الجزائر سنة 1830 التي كانت منع قلاع الخطوط الأمامية للدفاع عن الصحراء انفتح الطريق للأجانب من الطامعين والمغامرين. وبدأت رحلات الرحالة المكتشفين الأوروبيين من أجل الغزو التجاري والتوغل التبشيري في مناطق [1] منهم الرحالة البريطانيين. ومنهم الرحالة الألمان، كما اشتهرت طائفة من الرحالة الفرنسيين الذين ركزوا رحلاتهم ومعلوماتهم المسجلة على الصحراء الجزائرية بالذات .

ثانيا: مرحلة القرن التاسع عشر : مرحلة الاستعمار العلمي المخطط:

فقد عرفت نتائج البحوث العلمية -في الهندسة والطب الكيمياء والفيزياء.. وغيرها -ازدهارا وتطورا لم تعرف البشرية له مثيلا عبر تاريخها الطويل . وساعدت تلك الاكتشافات على التغلب على الأمراض الشائعة آنذاك بالأدوية الحديثة ،والقضاء على الأوبئة والحشرات المؤذية والمنومة برشها بالمبيدات الفتاكة، وأمكن التغلب على الحيوانات المفترسة بقتلها من مسافة بعيدة ،وتوفرت أجهزة الحفر وفتح القنوات وشق الأنفاق واختراق الجبال والوديان بمد الجسور، كل ذلك ساعد الأوربي على دخول غابات إفريقيا وخوض غمار وسطها الموحش والمخيف.

---

[1] إسماعيل العربي تاريخ الرحلة والاستكشاف ص288

ومن جهة ثانية ساعد العلم والتكنولوجيا على تطبيق المخطط الاستعماري لاختراق المناطق الواقعة جنوب الصحراء وبسط السيطرة الأوربية على القارة بأكملها في مؤتمر برلين حول إفريقيا 1884 -1885.

على الرغم من قرب السواحل الإفريقية من القارة الأوربية وعلى الرغم من أن إفريقيا كانت أول قارة طاف حولها الأوربيون، فقد كانت آخر قارة دخلت تحت النفوذ الأوربي .وذلك لأن أغلب شواطئ إفريقيا قاحل مجدب وهضبتها الوسطى محاطة بالصحاري والمستنقعات كما أن انهار القارة تسير عبر سلسلة من الشلالات والجنادل الأمر الذي صعب على المكتشفين السير نحو اكتشافها[1].

هذا بالإضافة إلى أن أهل القارة الإفريقية قوم محاربون بشراسة ولا يستسلمون بسهولة ولذا بقيت القارة الإفريقية بمنأى عن النفوذ الأوروبي حتى منتصف القرن19م. ماعدا بعض المحطات التجارية على الشاطئ.

ومن ذلك الوقت بدأ العلماء والباحثون والمكتشفون يجوبون أراضي القارة الإفريقية يتبعهم المهاجرون العسكريون مستعينين جميعا بما زودتهم له النهضة العلمية والفنية من وسائل جديدة حتى انتشر النفوذ الأوربي في كل الأرجاء حسب الاتفاق الثنائي أو حسب التقسيم الذي أقره مؤتمر برلين سنة1884- 1885، فتغيرت خريطة إفريقيا الاستعمارية مع تغيير الأوضاع ،وبدأت عوامل جديدة دفعت بالأوربيين إلى الاندفاع داخل القارة الإفريقية وكشف أنهارها ومناطقها المختلفة وأسرارها الخفية. تغيرت سياسة الدول الاستعمارية الأوروبية بعد مؤتمر برلين إذ قامت كل من فرنسا وبريطانيا بدراسة قرارات المؤتمر وذلك للالتزام بها من جهة والاستفادة منها للتوسع من جهة أخرى [2]. ومن هنا بدأ التنافس الحاد لاقتسام ما بقي من القارة شاغرا .

---

[1] إسماعيل العربي .الصحراء الكبرى وشواطئها . المؤسسة الوطنية للكتاب ،1983.

[2] مجلة المواقف عدد3 /ديسمبر 008 ." الطبيعة الصحراوية على الإنسان في الجزائر" ص ص143؛

انظر المعاهدات الثنائية. شوقي الجمل تاريخ افريقيا الحديث .

يقول عبد القادر حليمي: تعتبر جبال الأطلس الصحراوي حاجزا طبيعيا بين الصحراء والتل حيث تتوقف عندها الرمال مما خلق، وراءها من الشمال ،مراع لسكان السهو... ليست جبال الأطلس الصحراوي مانعة كل اتصال، بل هي متقطعة تقسمها الأودية من الشمال إلى الجنوب والتي تتجه نحو الساحل من الأطلس التلي وتتجه نحو الجنوب من الأطلس الصحراوي إذ تتبعت هذه الأودية ،إن الممرات التي تتخلل الجبال والتي كانت ممرات للقوافل المتنقلة أصبحت اليوم وسيلة لمد طرق المواصلات المعبدة بالزفت[1].

وقد كان للجبال وأشجارها وغاباتها أثر فعال في استغلاله من قبل أفراد جيش التحرير الوطني إبان الثورة التحريرية 1954-1962م وهي مناسبة لحرب العصابات، ولذلك عمل الاستعمار على إفنائها وتدميرها[2].

وتمتد الصحراء جنوبي الأطلس، الصحراوي وهي عبارة عن أحواض مغلقة ، ومنطقة قليلة العشب شحيحة بمياهها ،لذلك لا نجد بها اثر للسكن إلا في مناطق محدودة هي الواحات. وتمثل الصحراء الجزائرية أكثر من 80 في المائة من المساحة الإجمالية التي يقطنها حوالي نسمة واحدة في كل كلم مربع يتركز معظمهم في تلك الواحات ذات المياه الباطنية، يزرعون الخضر والفواكه ،ويعتمد البعض منهم على زراعة نخيل التمر التي تنتشر على طول وادي الساورة في الغرب وفي وادي ميزاب وتوقرت والمنيعة وعين صالح ووادي سوف نحو الشرق[3].

إذن تعد الوديان من أسباب الحياة للإنسان والحيوان الذي يمشي على رجلين أو على أربع والزاحف ... وقد طبعت الصحراء سكانها بالصبر والاحتمال،كما أن

---

[1] عبد القادر حيمي.علي ، 1968 . ص ص46:300

[2] مجلة المواقف, ص 147

[3] مجلة المواقف . ص148

سهولة الحياة بما عكس ما هو في المدن. جعلهم أناس كرماء شجعان يتصفون بالأخلاق الحميدة والبساطة وحب الغير ولاسيما الضيف عابر السبيل .

وتعود أهمية الصحراء الكبرى في كونها تربط الواحات المتعددة التي تزين الصحراء بمياهها العذبة وبساتينها الفيحاء بعضها ببعض. مما يجعلها صالحة للحياة من جهة، ومن جهة أخرى تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان لاحتياج كل منهما للآخر، وبذلك تتكون المد اشر والقرى التي تنتج المجتمع الصحروای، الذي تجمعه وحدة البيئة والمناخ، وطريقة المعيشة ،وتنشي العادات والتقاليد التي تتحول مع الزمن إلى تراث للمجتمع الصحراوي .

والصحراء الكبرى التي تمتد شرقا حتى ضفاف النيل ،وغربا حتى شواطئ الأطلسي، هي التي جمعت، وربطت بين المجتمع الإسلامي شرقا وغربا عبر عدد من الواحات .من واحة ورقلة إلى واحة برقة وطرابلس ،ومنها إلى واحات مصر؛ الأمر الذي أحدث حضارة متميزة ومراكز إشعاع. ونتج عن ذلك الترابط وجود العمران منذ دخول الإسلام ،كما قامت واحة توات بدور ايجابي بربط البلاد السودانية – مالي–بالجزء الشمالي من الجزائر إلى وقت قريب . فقد كانت قوافل الإبل ترحل من البيض ومشرية وعين الصفراء في اتجاه واحات قورارة وتوات حاملة السلع النادرة لتقايضها بسلع أخرى متوفرة أو مستوردة من إفريقيا وراء الصحراء تحتاجها المناطق الثلاث[1].

وقد صف أحد الباحثين الطبيعة والإنسان بأنهما وجهان لعملة واحدة، تتآلفان حينا وتتنافران حينا آخر . تسيطر الطبيعة على حياة الإنسان فتوجه حياته وفق مشيئتها ، ويصبح الإنسان مُلك قدرها ؛ ثم يسيطر عليها هو بدوره فيتراءى له الفوز والنصر عليها ،لكن الأيام دول ؛فمثلما تتصارع الأمم للتحكم في مقدرات هذه البسيطة، يعيش الإنسان في صراع دائم مع النظم الجغرافية ،من أجل السيطرة

[1] Gendre.19810 :218

عليها وكبح جماحها وتسخيرها لخدمة الحضارة الإنسانية والتمدن ، فهل وفق الإنسان في ذلك ؟ ولمن تكون الغلبة ؟ أللإنسان أم للطبيعة ؟

أصبح اليوم من المعروف أن الإنسان لم يظهر على وجه هذه الأرض، حتى اكتملت وتوفرت كل ظروف العيش المناسبة بها، من ماء وهواء وأرض خصبة مناسبة للاستقرار .فبدأ يتدبر حياته وعيشه ،بفضل ما أوتي من قوة العقل ومضاء العزيمة، وأصبح عاملا مؤثرا مغيرا لسطح الأرض، لكنه في الوقت نفسه خاضعا لظروفها الجغرافية .

ولهذا فإن للظروف الجغرافية أثر واضح على الحياة البشرية ،منذ أن وجد الإنسان على وجه هذه الأرض؛ فقد حمته هذه الظروف ونوعية التضاريس من أعدائه، في أوقات الخطر، لاسيما خلال أوقات الخوف والغارات الليلية. حيث كان المرء في أحوج ما يكون إلى الحماية و المساعدة للأسباب التالية :

1. خوفا من بني جنسه فالإنسان معروف من عهد قابيل وهابيل أنه معرض لظلم أخيه الإنسان، وطغيان القوي على الضعيف، فكان الضعيف يختبئ في الوديان أو داخل الكهوف والمغارات . وقد يضطر في غالب الأحيان إلى هجرة المكان والسعي في أرض الله الواسعة .طلبا للأمن والاستقرار .

2. خوفا من الحيوانات المفترسة التي تتربص به، في بداية الخليقة كان الإنسان يعيش على الطبيعة وسط الحيوانات الأليفة والمفترسة، فحياته كانت دائمة مهددة وهو معرض للخطر في أية لحظة. ولهذا زوده الله بالعقل الذي هداه إلى الاحتماء واللجوء إلى الكهوف والمغارات، والأماكن الوعرة ليتخذ منها ملجأ له ،ومأوى لحماية نفسه من كل ما يكدر عيشه، إلى درجة أنه كان يلجأ إلى تسلق الأشجار الشاهقة كالنخلة مثلا ،في المناطق الصحراوية ،وهذا وحده عذاب مقيم .هل يقضي الإنسان الليل بطوله فوق النخلة ؟ ربما .

3. إلا أن هناك مظاهر جغرافيا يصعب تخطيها بسهولة ،كالبحار والأنهار والبحيرات والجبال .

4. أن الصحراء المترامية الأطراف الشديدة الجفاف ،تفتقر إلى وسائل الاستقرار كالنبات والماء .

5. ولهذا كانت الصحراء عامل طرد للإنسان على مر الزمان. بحثا وراء الكلأ والماء.

6. بدأت الحضارات الأولى بالسهول حيث الأراضي مساعدة على الاستقرار والاستغلال، وعاشت عليها الأجناس المتحضرة الأولى، وهي في جماعات أكبر من الأسرة والقبيلة، ولكنها مجتمعات صغيرة كونت وحدة بين أفرادها تشعر بكيانها وذاتيتها. والبحر الذي ليس مستقر للإنسان ينبغي لاجتيازه معرفة وتحضر كاف، وقد كان البحر الأبيض المتوسط أول مدرسة لتعليم الملاحة للإنسانية، بحكم أنه يتوسط العالم القديم .

وخلاصة القول أن الصحراء هي أحسن التضاريس لتنقل الإنسان ،وأسهل للحياة الطبيعية البسيطة. وهي مهد الديانات السماوية صحراء بلاد العرب وصحراء سيناء. والصحراء الكبرى أرض الشجعان والأبطال والجهاد على مر العصور. وهي الرابط بين الأقطار الشمالية المطلة على البحر الأبيض المتوسط وبين بلدان الذهب والعاج وريش النعام. واليوم هي أكبر خزان للطاقة مما يزيدها عزة ومنعة ويعطيها الأهمية القصوى. والمكانة الإستراتيجية المرموقة.